

**ملتقى مركز الجزيرة للدراسات حول  
العلاقات العربية الروسية  
فبراير / شباط 2009**

## **روسيا والعالم العربي في ظل التحولات الدولية**

**د. عاطف معتمد عبد الحميد**

أستاذ الجغرافيا السياسية بجامعة القاهرة



## تمهيد

دارت عجلة التاريخ خلال العقدين الماضيين (1989/2009) لتجعل كلا من العالم العربي والاتحاد الروسي منشغلين بالداخل لدرجة حالت دون تحقيق التقارب الإستراتيجي الذي توقعه المنظرون في المعسكر الأمريكي مع انهيار المنظومة الشيوعية عام 1991.

بدأت أحداث التاريخ تمضي على نحو المصادفة، ففي ذات العام الذي انهارت فيه الشيوعية انهار البناء السياسي للمشرق العربي مع غزو العراق للكويت، وما تبع ذلك من تداعيات كارثية أفضت في النهاية إلى سقوط بغداد عام 2003 تحت الاحتلال الأنجلو أميركي. واستمرت إسرائيل تؤدي دورها بكفاءة فشغلت بقية دول المشرق العربي بصراع دموي في الأراضي الفلسطينية ولبنان، كما شغلت بالمثل سوريا بدرجة كبلت معها حراكها العسكري والسياسي.

لم يكن لدى العالم العربي سعة من الوقت، وسط ذلك الزحام، لمتابعة ما يجري في البيت الروسي وما ألم بورثة النظام السوفيتي. وبعد أن احتلت القوات الأمريكية وحلفائها أفغانستان وأحكموا غزو العراق، اكتشف العالم العربي أن قوات مماثلة قد تسللت إلى عتبات الأراضي الروسية في كل من جورجيا وأذربيجان وجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية فضلا عن اختراقها المبكر للجبهة الروسية على تخوم أوربا الشرقية.

في المقابل كانت الأوضاع تتدهور في روسيا على نحو ما توقع المحللون الإستراتيجيون في المعسكر الغربي؛ فالدولة التي انهارت أيديولوجيا لم تكن لتهرب من مصير انهيار البناء الاجتماعي، وتداعي الهيكل الاقتصادي، بل بدأت عدة محاولات لتفكيك بنائها الفدرالي.

لقد شهدت روسيا في العقدين الفائتين إحدى أخطر فترات تاريخها على الإطلاق، إذ تراجعت سمعتها الدولية، وتفككت أطروحاتها السياسية مع دول الجوار، وانتهجت مسلكا عنيفا في حل مشكلة معقدة مع القومية الشيشانية على حدودها الجنوبية في القوقاز؛ ما أدى إلى تعبيد الطريق لخسارة روسيا جزءا مهماً من التعاطف الشعبي في العالمين العربي والإسلامي.

وبرغم ما شهدته العقد الأول (1991-2000) من تراجع دور روسيا على الساحة الدولية، حمل العقد الثاني (2000-2009) محاولات جادة لاستعادة موسكو دورها الإقليمي والدولي. ويعتبر عام 2000 علامة فارقة في تاريخ التحولات التي مرت بروسيا خلال العقدين الماضيين. فمع تولي الرئيس الروسي فلاديمير بوتين رئاسة روسيا (2000-2008) تغيرت سياستها الداخلية والخارجية مما أدى إلى تحسن كبير في دور ومكانة روسيا في ميزان القوى الدولية، وفي علاقاتها بالمثل بالعالمين العربي والإسلامي.

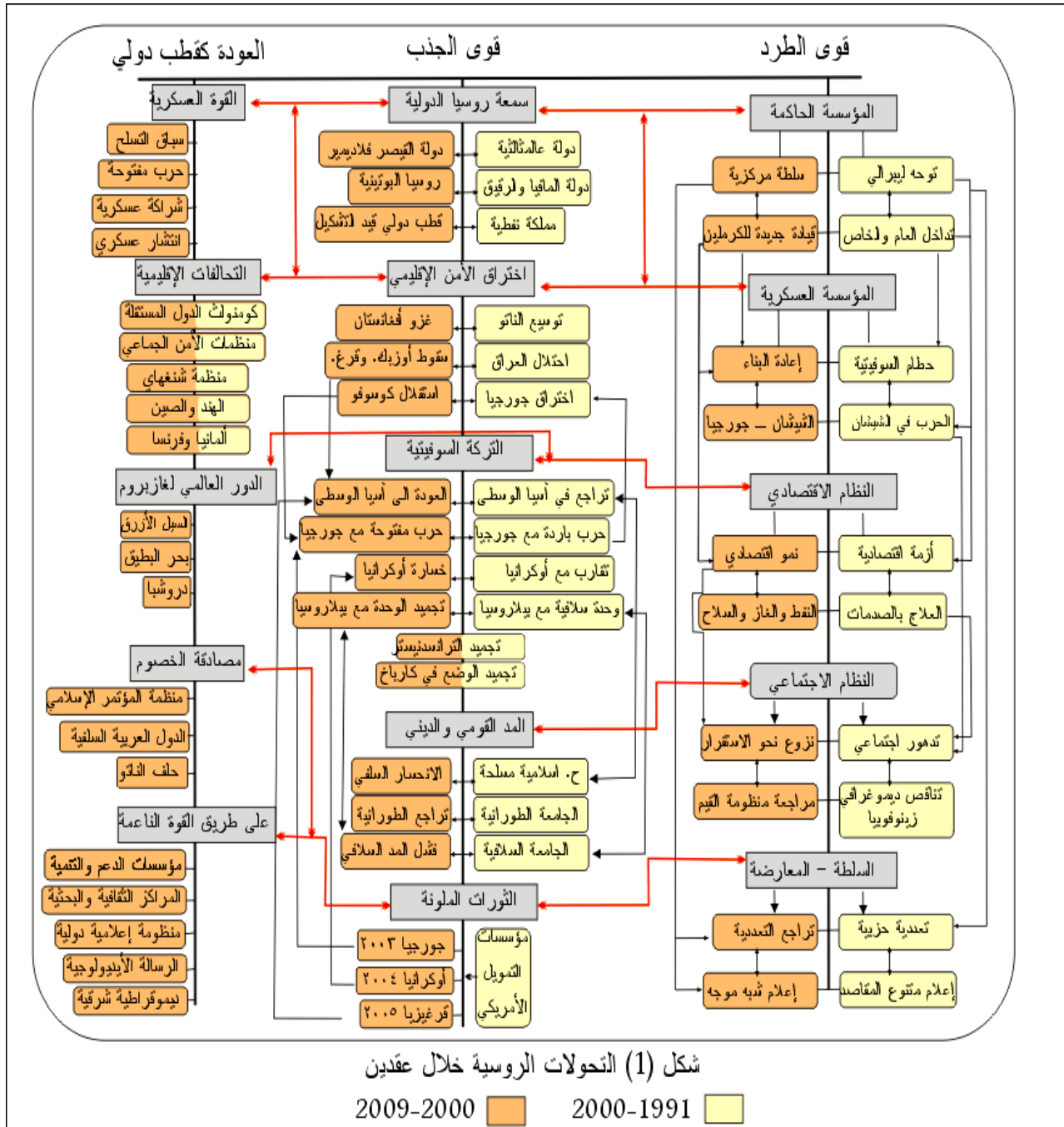
## حصاد عقدين

تطلع العالم العربي في العقدين الفائتين إلى الأصدقاء في روسيا في عدد من الأزمات، اختلف فيها تقديرهم عن الدور الذي لعبته روسيا من قبل، وبصفة خاصة ما وجده العرب من تباين بين موقف موسكو الحديث وموقفها خلال نصف القرن الماضي.

جدول (1) أهم الأزمات التي تابع العالم العربي فيها دور ومكانة روسيا (1991-2009)

التاريخ	المشكلة / الأزمة	موقف روسيا	توقعات العالم العربي
1991-1992	تصدع الأمن العربي	الانشغال بتفكك المنظومة السوفيتية	تقدير الموقف واستيعاب الحدث
1994-1996	الحرب الشيشانية الأولى	إخفاق في معالجة القضية	منح الشيشان الاستقلال
1999	الحرب في كوسوفو	إخفاق في معالجة الأزمة	تدخل أكثر تأثيراً
1999-2001	الحرب الشيشانية الثانية	معالجة شرسة للأزمة	منح الشيشان الاستقلال
2001-2002	الحرب الأمريكية على "الإرهاب"	المشاركة والدعم	الفصل بين المشاكل الداخلية والحملة الأمريكية
2003-2005	غزو واحتلال العراق	المتابعة والشجب والاستنكار	تدخل أكثر حسماً قبل الحرب
2006	الحرب الإسرائيلية على لبنان	المتابعة والشجب ودعوة إلى ضبط النفس	تدخل أكثر حسماً في المؤسسات الدولية
2008	الحرب الروسية - الجورجية	الحسم العسكري الروسي	رد روسي قوي
2009	الحرب الإسرائيلية على غزة	المتابعة والشجب ودعوة إلى ضبط النفس	تدخل أكثر حسماً والضغط على إسرائيل

ويمكن القول إن جزءاً مهماً من قراءة الموقف العربي للدور الروسي قد أحاطت به كثير من الآمال والتطلعات الناجمة عن عدم متابعة كافية لعوامل الطرد وقوى الجذب التي أحاطت بروسيا خلال العقدين الماضيين (شكل 1).



ومن مراجعة الشكل السابق يمكن الوقوف على مجموعة من الضوابط التي يحسن أن نأخذها في الاعتبار حتى نحقق رسماً أفضل لمستقبل العلاقات الروسية العربية:

**أولاً:** تمكنت روسيا في فترة حكم الرئيس فلاديمير بوتين من إعادة السيطرة على الأوضاع الداخلية في البلاد بعد عقد من الفوضى واهتزاز سمعة روسيا عالمياً. وقد عانت روسيا قبل أن تصل إلى مرحلة الاستقرار من عدة "كوارث" بعضها مؤسسي (كفوضى المفاهيم والأيدولوجيات) وبعضها

حزبي. كما كان بعض من هذه الكوارث عسكري ارتبط بانهيار النظام العسكري مع الانهيار السوفيتي وورثة الجيش الروسي لمؤسسة عسكرية محطمة وهو ما عبد الطريق للسقوط في محنة أخرى مثلتها حرب الشيشان الأولى (1994-1996).

وقد رافق تلك الفترة المرتبكة انهيار اجتماعي ارتبط بهجرة منظمة إلى الغرب وإسرائيل وتناقص ديموغرافي وانتشار ظواهر اجتماعية دخيلة، كان أبرزها تلك التنظيمات العنصرية (النازيون الجدد) والحركات القومية المتطرفة المتحججة بالخوف من التلاشي الديموغرافي الروسي أمام الأعراق الأجنبية الوافدة. وقد اختتم هذه المآسي بإرباك إعلامي جرب في الشعب الروسي كل شيء، من أفلام البورنو إلى تفتيق الفضائح السياسية للخصوم والمعارضين، في فوضى إعلامية بكل المقاييس.

ومن زاوية أخرى حمل العقد الثاني تحسنا في الأداء الاقتصادي في الداخل الروسي وحقق النمو الاقتصادي معدلات ملحوظة بعد أن عانى السكان من أساليب اقتصادية عرفت باسم "العلاج بالصدمات" حققت بالفعل "صدمات" للسكان لكنها لم تقدم لهم "علاجاً".

**ثانياً:** تركت المتغيرات السابق ذكرها تأثيرها الكبير على قوى الجذب الخارجية. فسمعة روسيا الدولية وصلت في العقد الأول (1991-2000) إلى درجات متردية حتى إنها صنفت في الشرق والغرب كدولة من دول العالم الثالث تتلقى مساعدات إنسانية وتنتشر فيها الجريمة بشتى أنواعها.

الأكثر من هذا أن روسيا وصفت في غير مرة في العقد الأول بأنها دولة المافيا والرقيق الأبيض وحين تحسنت هذه الصورة نسبياً في نهاية التسعينيات صارت تعرف باسم "المملكة النفطية" في استخفاف بالغ بقدرات روسيا البشرية والاقتصادية وحصرها على مجرد دولة لا تملك من دور في العالم سوى بيع النفط والغاز. لكن هذه السمعة تحسنت في العقد الثاني وإن كان التحسن في اتجاه واحد؛ حيث بقيت كافة الأوراق في قبضة الكرملين، فعرفت روسيا منذ عام 2000 بأسماء مثل "دولة القيصر فلاديمير" أو "روسيا البوتينية" وفي عام 2008 و مطلع عام 2009 تحسنت السمعة الدولية لمستوى كبير وصارت توصف معها روسيا بـ "قطب دولي قيد التشكيل".

**ثالثاً:** تعرضت روسيا لاختراق كبير في أمنها القومي في العقد الأول، سواء بتوسع الناتو شرقاً عبر عدة مراحل أفضت في النهاية إلى وضع الناتو قواته في دول البلطيق على مرمى حجر من مدينة سان بطرسبرغ، العاصمة الثانية لروسيا، فضلاً عن كشف أجزاء بالغة الأهمية الإستراتيجية من روسيا الأوروبية. ولم يكن العقد الثاني بأفضل حالاً فقد خسرت روسيا خسارة إستراتيجية فادحة حين اضطرت لتميرير غزو واحتلال أفغانستان، رغبة في التخلص من النموذج الطالباني في آسيا الوسطى.

ولقد أدى هذا إلى تبعات خطيرة على الأمن الإقليمي لروسيا، حين وافقت أوزبكستان وقرغيزستان على إقامة قواعد عسكرية للولايات المتحدة على أراضيها. وقبيل نهاية هذا العقد (فبراير 2008) أعلنت كوسوفو عن استقلالها بدعم أمريكي وهو ما أفقد روسيا عمقا إستراتيجياً من خلال الإجهاد على دولة السلاف الجنوبيين (يوغسلافيا) أبناء العمومة والدين.

**رابعاً:** تراجع روسيا في العقد الأول إلى الوراء عدة خطوات في القوقاز وآسيا الوسطى وحاولت تعويض هذا التراجع من خلال وسائل قوة ناعمة فيما عرف بالوحدة السلافية التي لم تحقق في العقد

الثاني أية نجاحات. وزادت خسائر روسيا في العقد الثاني حين انضمت أوكرانيا إلى المعسكر الغربي واختتم هذا العقد بنتيجة دموية حين اشتبكت روسيا في حرب مفتوحة مع جورجيا.

**خامساً:** بعد أن فشلت روسيا في مواجهة الحركات الإسلامية المسلحة في القوقاز وآسيا الوسطى خلال العقد الأول (1991-2000) وعانت من مخاوف انتشار المد القومي المدعوم تركيا تحت اسم الجامعة الطورانية تمكنت في العقد الثاني من استغلال الحرب الأمريكية على "الإرهاب" وساهمت بالمثل في استغلال المناخ الدولي المناهض للحركات الإسلامية المسلحة.

لكن المكاسب التي حققتها روسيا من وراء الحملة الدولية على الإرهاب الدولي خسرت في مقابلها مناطق تحالف تقليدية عبر وسائل اختراق جديدة عرفت باسم الثورات الملونة. وكانت النتيجة خسارة جورجيا في 2003 وأوكرانيا في 2004 وقرغيزستان في 2005. وحاولت روسيا التقليل من حجم هذه الخسائر فتمكنت من استعادة قدر كبير من العلاقة مع قرغيزستان بين عامي 2007-2009 .

#### تساؤلات المرحلة

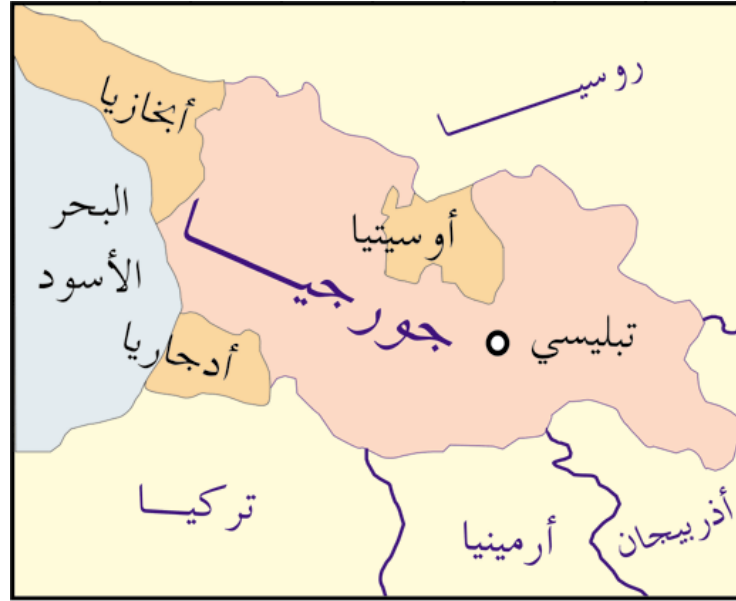
- ولفهم أفضل للعلاقات الروسية العربية لعله من المفيد البحث عن إجابة لسؤالين أساسيين:
- هل تتجه روسيا إلى إحداث توازن في العلاقات الدولية؟
  - إلى أي مدى سيستفيد العالم العربي من استعادة روسيا لمكانتها كقطب دولي؟

تشير التقديرات إلى أن روسيا تعمل على إحداث توازن في العلاقات الدولية، وقد قطعت في سبيل ذلك الخطوات التالية:

**أولاً:** أعطت روسيا في صيف عام 2008 في الحرب الجورجية- الروسية ردا قويا على سياسة الاختلال الدولية التي تسببت فيها الولايات المتحدة في البلقان حين دعمت استقلال كوسوفو وحولت الإقليم اليوغسلافي السابق إلى مركز ثقل عسكري لحلف الناتو.

فقد جاء اعتراف روسيا باستقلال أبخازيا وجنوب أوسيتيا ودعم وجودها العسكري في أراضي هاتين الجمهوريتين خطوة غير قابلة للتراجع في إقليم القوقاز الذي يعد خط تكسر القوى منذ انهيار الاتحاد السوفيتي.

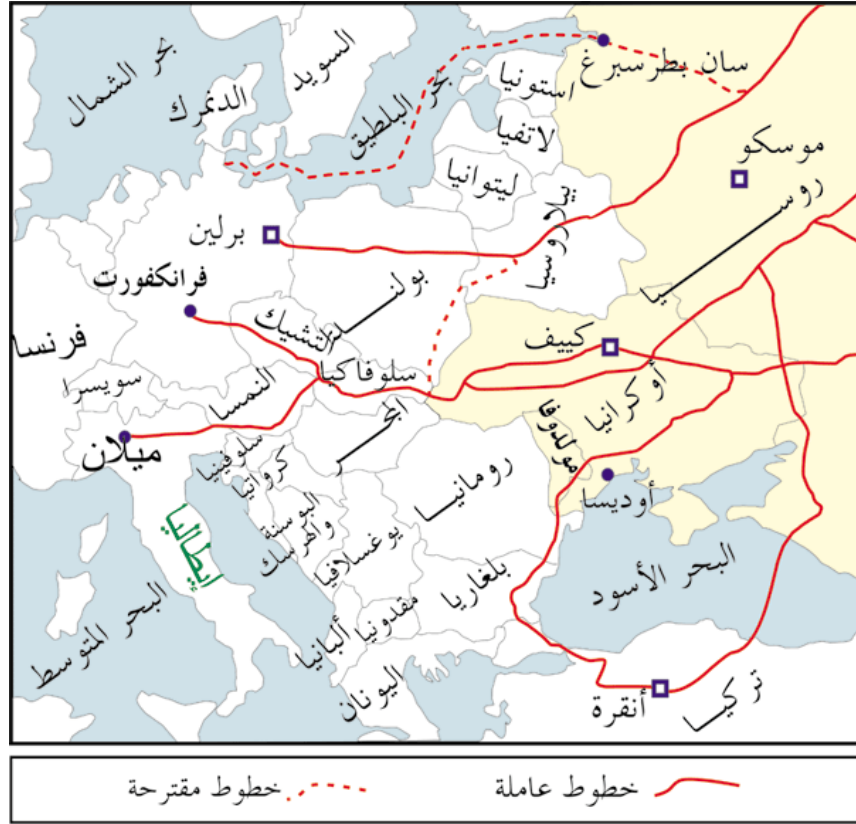
**ثانياً:** تمكنت روسيا من إعادة عدد من الدول السوفيتية السابقة بعد وقوعها تحت النفوذ العسكري والسياسي للولايات المتحدة. ولعل قيام قرغيزستان في فبراير 2009 بإعلانها إغلاق قاعدة ماناس العسكرية التي كانت تؤجرها للولايات المتحدة منذ الحرب على "الإرهاب" بمثابة أهم ثمار الجهود الروسية للعودة مرة أخرى إلى آسيا الوسطى. كما يصب في نفس النهر إغلاق أوزبكستان للقاعدة الأمريكية بعد توتر العلاقة بين الجانبين في 2005.



شكل (٣) المناطق التي سعت للانفصال عن سلطة تبليسي

**ثالثاً:** استجابت روسيا لطلب الولايات المتحدة تقديم الدعم في أفغانستان بعد اضطرار حلف الناتو - نتيجة فشله في إقرار الأمن وتحقيق السيطرة - لأن يطلب المساعدة من روسيا. وقد أعاد ذلك الموقف قدراً من التوازن في الأهمية الإستراتيجية والقوى المؤثرة على وسط وجنوب آسيا. واستفادت روسيا هنا من امتلاكها أهم مفاتيح الجغرافيا السياسية المحيطة بأفغانستان، سواء لخبرتها السابقة في الإقليم منذ الغزو السوفيتي (1979-1989) أو لتأثيرها على الممرات البرية الأكثر أهمية (عبر حلفائها في آسيا الوسطى) وجوا (عبر قواعدها العسكرية في قرغيزيا وطاجيكستان وكزاخستان).

وقد يبدو الأمر للعالم العربي مستغرباً. إذ كيف تمد روسيا يدها لمساعدة الولايات المتحدة والناتو بدلاً من العمل على تكريس فشلهما. ولعل أهم التفسيرات للرد على ذلك السؤال العربي (والإسلامي) هو أن روسيا تتفق مع الولايات المتحدة في أهمية القضاء على النموذج الطالباني في وسط آسيا وثنانيا (وهو الأكثر أهمية) أن الموافقة الروسية جاءت في أعقاب إغلاق قرغيزيا القاعدة العسكرية الأمريكية. وتبدو هذه المقايضة وكأن روسيا تقول: "مضطرون لتقديم الدعم العسكري لكم، لكن لا نرضى بقواعد عسكرية على تخومنا".



شكل (٢) أنابيب الغاز الروسية في القارة الأوروبية

**رابعاً:** رغم الانتقادات التي توجهها الولايات المتحدة لروسيا لتحكمها في أمن الطاقة في القارة الأوروبية والقيام برفع أسعاره من عام لآخر (تمشيا مع الأسعار الدولية) إلا أن روسيا نجحت في تقديم نفسها كمورد عالمي موثوق في قدرته للحفاظ على أمن الطاقة في العالم.

**خامساً:** تمكن الكرملين من إفشال المشروع الأميركي بدعم منظمات في الداخل الروسي لتغيير الخريطة السياسية والتنظيمات الحزبية ونشر "فيروس" الثورات الملونة إلى الداخل الروسي.

**سادساً:** انطلقت روسيا بحرية في المدارات السابقة بعد أن قامت بتأمين الجبهة الداخلية فأمسكت بقبضة صارمة على المراكز والأقاليم الإدارية والجمهوريات القائمة على أساس عرقي. واعتمدت موسكو عقيدة سياسية تؤمن بأن ما يصلح لروسيا في هذه المرحلة هو ضمان الاستقرار ورفع مستوى معيشة السكان ولملمة أطراف الدولة من الانفراط قبل أن تفتح الأبواب للديمقراطية في نسختها الغربية، أو دعم الليبرالية بنسقتها الأمريكي، أو فتح الباب أمام تفعيل الحكم الفدرالي على نحو فوضوي.

لقد أدركت موسكو أن واشنطن على يقين بأن روسيا الديمقراطية والحررة هي أقرب لروسيا التفسخ والتفكك. ففي هذه الدولة صاحبة التاريخ الطويل من الحكم المركزي، يكتنف تفعيل الديمقراطية والفدرالية واعتماد البناء السياسي على صناديق الاقتراع مخاطر عدة. فالانفصال على أسس دستورية، ونمو تيارات قومية لدى الأعراق المتعددة، وزيادة رغبة المسلمين في روسيا (وهم بعد



الروس ثاني أكبر جماعة سكانية) في التمايز القومي والديني، بمثابة القنابل الموقوتة التي تأمل واشنطن في أن تشغل روسيا بالداخل وتعرقل خطواتها نحو "مائدة" التنافس الدولي.

لذلك فإن ما تقوم به روسيا اليوم من جمع كل أوراق الداخل في قبضة الكرملين (والذي تسميه واشنطن ردة وانتكاسة لزمان القيصرية) ليس سوى خطوة فاعلة على طريق منافسة روسية قوية للولايات المتحدة على النظام الدولي من خلال تأمين الداخل بهدف التفرغ للخارج.

أما السؤال الثاني المتعلق بمدى استفادة العالم العربي من التوازن الروسي في الحلبة الدولية فلا يحتاج إلى كثير برهان. فمع عودة روسيا إلى الساحة الدولية تستعيد قدرتها على دعم أقاليم جغرافية تحت السيطرة الأمريكية.

فروسيا تتقدم في السنوات الأخيرة نحو دعم مكائنها كثاني أكبر مورد للسلاح في العالم، وتجنبي روسيا من وراء ذلك عائدات ضخمة. ولعل في هذا ميزة للاقتصاد الروسي بعد أن عوض موسكو عن تقديم السلاح على الطريقة السوفيتية مقابل اعتناق أيديولوجيات بعينها. أما نقطة الضعف في ذلك فتكمن في أن تعامل روسيا بمفاهيم السوق قد يصنع لها زبائن شبيه دائمين لكنه لا يشكل حلفاء إستراتيجيين.

إن نقطة الضعف الأساسية في موقع العالم العربي في خريطة التوازنات الروسية تكمن في وقوعه في نطاق "حلل الوسط" وليس "الحلول الجذرية". نحن هنا لا نتحدث عن القوقاز أو آسيا الوسطى أو الشرق الأقصى أو بحر البلطيق أو البحر الأسود حيث "عظم الدب الروسي" وإنما نتحدث عن إقليم تتنازع قوى استعمارية متعددة وتنطلق منه حركات دينية وقومية متنوعة الأهداف.

**ففي فلسطين:** هل لروسيا من منهج آخر غير الحلل الوسط؟ كيف توازن روسيا بين علاقاتها مع إسرائيل ووجود نحو مليون روسي وسوفييتي سابق في فلسطين المحتلة؟ كيف يمكن إغفال الدور السياسي الذي يلعبه الروس اليوم في إسرائيل؟

وفي نفس التشابك كيف سيفصل العرب بين روس إسرائيل الذين يزايدون على اليمين المتطرف اليوم والروس الأصدقاء في الاتحاد الروسي؟ إن الحلل الوسط هي ذاتها التي تجعل موسكو لا تتخذ إجراءات حاسمة تجاه إسرائيل بعدما وجهت لها تهمة بتغذية "العدوان الجورجي" على أبخازيا وجنوب أوسيتيا.

ثم كيف ينظر العرب إلى الأصدقاء الروس وهم يسمعون المسؤولين الروس يكتفون بالقول "إنهم يشعرون بالقلق تجاه الصور المفزعة التي شاهدوها في غزة".

روسيا لا تريد أن تخسر الفلسطينيين أو الإسرائيليين، وهي بكل تأكيد لن تقطع علاقات مع دولة تمارس الإرهاب بينما بعض الجيران العرب لهذه الدولة يقيمون معها علاقات علنية وسرية.

المشكلة أنه حين نتابع ما يكتب في الداخل الإسرائيلي ستزداد الصورة تشابكا، فقطاع غزة بالنسبة لإسرائيل ليس سوى صورة مكررة للشيشان، ومن ثم فإن ما تمارسه إسرائيل تجاه الجماعات "الإرهابية" في غزة لا يختلف عما مارسته روسيا تجاه الشيشان.

لقد زايد بعض الإسرائيليين على العلاقة بين موسكو وتل أبيب مؤكداً أن ما طالبت به بعض جماعات حقوق الإنسان الأوروبية من تقديم عدد من المسؤولين الروس للمحاكمة بتهمة ارتكاب جرائم حرب في الشيشان تتعرض له إسرائيل الآن تجاه "دفاعها عن النفس" في غزة.

يبدو أن العالم العربي متفق مع حاجة روسيا لمبدأ الرئيس الروسي السابق فلاديمير بوتين القائل "إنه كي يكون لك مكان تحت الشمس فعليك أن تحتفظ بخيوط للتواصل مع الجميع" لكن حين يتعلق الأمر بفلسطين وإسرائيل فإن هذه المبدأ في حاجة إلى مراجعة.

**وفي سوريا:** هل ننتظر أكثر من الوضع المجد حالياً؟ هل يمكن أن تتحمل روسيا تبعات تسليحها لدمشق بدرجة تخل بالتفوق الإسرائيلي والاستقلال اللبناني وتزيد بشكل مفرط من القدرات العسكرية لحزب الله؟ ثم ما هي مصلحة روسيا من ضبط كفتي الميزان؟  
إن تجربة روسيا اليوم تفيد بأنها تراقب جيداً مناطق النزاعات المجدمة مثل الجولان وكشمير وكاراباخ والدنيستر وغيرها، لكنها إذا تدخلت يكون ذلك لمصالح إستراتيجية مباشرة يتطلبها الأمن القومي الروسي .

**وبالنسبة لدول الخليج والسعودية** يمكن القول إن روسيا حققت مع كل دولة على حدة أقصى ما يمكن تحقيقه في السنوات السابقة. فقد مضت روسيا مع بعض دول المنطقة في تحقيق مكاسب كبيرة في الاستثمار والأعمال التجارية والسياحة. ولم يكن مطلوباً من بقية الدول الخليجية من أجل تدعيم الصداقة مع روسيا سوى إيقاف الشحن الشعبي لقضايا الأقليات الإسلامية والشيشان بصفة خاصة، بدءاً بإيقاف التبرعات المالية لهيئات الإغاثة، وانتهاء بحظر النشر بشأن الموضوعات التي تسيء إلى صورة روسيا حين كانت بعض وسائل إعلام المشرق العربي تستخدم مصطلحات مثل "الإبادة الجماعية" و"التطهير العرقي" مشيرة إلى ممارسات روسيا في القوقاز.

لقد استفادت روسيا من الصدمات التي وقعت في دول الخليج والسعودية بين الأجهزة الأمنية والجماعات المسلحة التي نفذت أعمالاً إرهابية، ويعبر عن ذلك بشكل جيد التصريح الذي أدلى به الرئيس الروسي السابق فلاديمير بوتين بعد إحدى التفجيرات في السعودية بقوله "إن التفجيرات التي شهدتها الرياض وموسكو مؤخراً تحمل نفس التوقيع".

ويمكن القول إن العلاقات الروسية مع دول الخليج تمضي في تحسن كبير على المستويين الرسمي والشعبي مع تقادم القضايا التي كانت محل الخلاف.

**وبالنسبة لإيران** يبدو الدور الذي تمارسه روسيا تجاه دعم إيران بالتقنية النووية إيجابياً في ظاهره وإن لم يكن كذلك بالضرورة في باطنه. فعلى المستوى الرسمي تتخذ عدة دول عربية موقفاً رافضاً لتسلح إيران بالطاقة النووية خاصة أن ذلك سيؤدي إلى اختلال الأمن في الخليج واستمرار ابتزاز القوات الأمريكية لدول المنطقة بضرورة بقاء أساطيلها البحرية في المياه العربية .

لكن على المستوى الشعبي ثمة تعاطف كبير مع روسيا لموقفها الداعم لإيران، اعتقاداً بأن التسلح النووي الإيراني سيكون في صالح القضية الفلسطينية على وجه الخصوص والقضايا الإسلامية بصفة عامة. ويبدو للعالم العربي أن روسيا تقف إلى جوار إيران رغبة في عودة التوازن في النظام الدولي دون أن يكون من بين أهدافها التسبب بقصد (أو من دون قصد) في اختلال التوازن الفارسي

- العربي والسني - الشيعي. كما قد لا تنتبه روسيا (على نحو ما حذر عدد من كتابها) من خطورة ظهور قوة نووية على تخومها الجنوبية.  
وفي النهاية فإذا أردنا أن نكون موضوعيين في توقعاتنا بعودة روسيا إلى التوازن الإستراتيجي علينا كعرب أن نحسم موقفنا على المستوى العربي الرسمي من قضيتين أساسيتين:  
- وحدة الصف العربي (المصري والسوري واللبناني والسعودي والأردني والفلسطيني) تجاه الاحتلال الإسرائيلي حتى نطلب من روسيا موقفا قويا مشابها.  
- إيقاف مسلسل الانبساط أمام المشروعات الأمريكية وفتح الأجواء والبحار وإقامة القواعد العسكرية التي تركز الاستعمار الأمريكي ولعلنا نستفيد من تجربة البرلمان القرغيزي الذي صوت لإغلاق القاعدة الأمريكية في شهر فبراير الجاري.

### الحاجة إلى قوة ناعمة

على خلاف التاريخ المتوتر في علاقة روسيا بعدد من دول الجوار القريب في أفغانستان ودول آسيا الوسطى والقوقاز التي مارست فيها موسكو دور الأخ الأكبر (والذي يوصف أحيانا بالأخ المتسلط) فإن العالم العربي يدين لروسيا بالفضل ويعترف لها بالجميل في عدد من الفترات المحورية في تاريخه.

ومن ثم فإنه لدى روسيا فرصة جيدة في العالم العربي للتغلب على المشروع الأمريكي الهادف إلى السيطرة على موارد الشعوب ونشر الفوضى والحروب الأهلية وصناعة أتباع وزبائن لواشنطن. وتحتاج روسيا في سبيل ذلك إلى ممارسة القوة الناعمة. لكن قبل اعتماد وسائل هذه القوة لا بد أن تلقت روسيا إلى مجموعة من الاستفسارات التي تطرح نفسها على الساحة العربية وأهمها:

■ العالم العربي في انتظار أن تحسم روسيا موقفها من المفاهيم الحضارية الكبرى ومن بينها النسخة الخاصة بالديمقراطية السيادية (أو ديمقراطية الشرق في مقابل ديمقراطية الغرب) والاقتصاد الرأسمالي الخاضع لرقابة الدولة، والإعلام الحر المحكوم، والنسخة الروسية من حقوق الإنسان، وغير ذلك من المفاهيم الغامضة للمرحلة الانتقالية؟

■ كيف يمكن نقل تجربة روسيا في التعايش بين الطوائف المختلفة إلى عدد من بلدان العالم العربي. وهل هناك من دروس من القوقاز والفولغا والشرق الأقصى يمكن الاستفادة منها مع مشكلات الفرق والطوائف في بلدان عربية مثل لبنان والعراق والسودان والمغرب العربي؟ وهل يصلح المنهج الروسي للحالة العربية.

■ وفي تجربة العمل الإسلامي بأطيافه الثلاثة: الشعبية والحركية والرسمية، ما هي الخطوات التي يمكن تتبعها خلف روسيا في تعايش المسلمين الروس (الذين يزيدون عددا عن 20 مليوناً) مع نسيج المجتمع الروسي ككل؟ وهل تقدم روسيا جسراً مع العالم العربي عبر هؤلاء المسلمين للتواصل الحضاري؟

■ ما هي الجسور الدينية التي يمكن أن تمتد بين العالم العربي والمسلمين في روسيا دون أن يقع المحذور الذي تخشاه روسيا (نشر الأفكار المتطرفة) ودون أن نصل إلى النتيجة التي نعيشها الآن وهي شبه الانعزالية وصعوبة التواصل أو تقديم صورة بالغة الدموية على نحو ما تم التعامل في الشيشان؟

■ وعلى المستوى الشعبي أيضاً هل يمكن استقبال روسيا لشريحة من العمالة العربية وبصفة خاصة الشريحة المتعلمة منها التي تجد الأبواب الأوروبية موصدة.

■ ينتظر العالم العربي في المقابل على مستوى التعليم تلك المدارس والكليات والجامعات الروسية التي تنقل رسالة روسيا العلمية والحضارية. وروسيا ليست في حاجة لمن يذكرها بأن بعض مراكز البحث والتعليم الأمريكي تعد بمثابة أهم مصادر البحث العلمي والثقافي في عدد من الدول

العربية. وعلى مستوى الخدمات الشعبية التي ستؤثر حتما على الأجيال العربية المقبلة ما هي الخطة الروسية لنشر عدد من الخدمات الطبية التي حققت فيها روسيا نجاحا عالميا؟

- صحيح أن روسيا سجلت مواقف ناجحة في مجال قوتها الناعمة والممتلئة في الخطوات الإعلامية الناجحة التي تقوم بها النسخة العربية من قناة روسيا اليوم والنسخة العربية من وكالة الأنباء ربا نوفستي لكن ما يزال هناك كثير من الخطوات تنتظر التحقيق في مقدمتها:

- الاهتمام بنشر اللغة الروسية في العالم العربي وهي خطوة أظنها مفتاحا أساسيا لكل الملفات الأخرى. وفي هذا الصدد علي روسيا ألا تعتبر كثيرا بعدد الذين يجيدون اللغة الروسية في المنتجعات السياحية في شرم الشيخ ودبي لخدمة السائحين الروس فمثل هذه اللغة لن تصنع تواصلًا بالمعنى الحضاري الحقيقي.
- إعادة إحياء التراث الثقافي الروسي وبصفة خاصة في مجالات الرواية والشعر والموسيقى. فضلا عن ضرورة تقديم السينما الروسية إلى المشاهد العربي إلى جانب الدراما التلفزيونية.
- تشكيل دور نشر للترجمات الروسية المعاصرة.
- دعم شخصية المراكز الثقافية الروسية في العالم العربي ومن المدهش هنا أن تجد أن المركز الثقافي الروسي في القاهرة على سبيل المثال يشنت جهوده في تدريس برامج الحاسب الآلي واللغة الإنجليزية.
- إقامة عدد من مراكز الأبحاث والدراسات أو ما يطلق عليه مستودعات التفكير - Think Tanks في العواصم العربية المحورية.

وفي الختام قد تكون المقولة الروسية *нам не до этого* (أي ليس لدينا وقت لهذا) ردا واقعيا على متطلبات الحالة العربية. إذ أن تلبية مثل هذه المتطلبات أمرا لا مفر منه في إقليم مثل آسيا الوسطى والقوقاز وشرق أوروبا، ولكن لا طاقة لروسيا به في العالم العربي، لكن المستقبل قد يحمل إجابات أكثر تفاؤلا.